سلطة الجذور.. أو رغدها العريض

من الصعب جداً أن نطلب الى المستشرقين التعامل مع تراثنا الاسلامي بالقدر نفسه من شعور الولاء والحميمية الذي نكنه نحن له. فنحن تربطنا بذلك التراث -طبيعياً- شروط عقائدية وجذورية تتجاوز، في قوتها ونفاذها، ماشدهم أو يشدهم إليه من أغراض هي، في ظاهرها على الأقل، علمية واستكشافية، وليس لنا أن نتوقع أو ننتظر من هؤلاء اكثر من تلك الأغراض، بل إن وقوفهم عند حدودها وعدم تراجعهم عنها الى مستوى المس أو الاساءة غاية نتمناها ولانرجو غيرها.

نحن يربطنا بتراثنا أننا ننبع منه، أو هو ينبع منا، فهو دمنا، وهو نسيجنا فنحن الأقرب الى فهمه، ونحن الأجدر بالدفاع عنه.

المستشرقون ضيوف على مائدة اجنبية، فيهم من سيحب الطعام وفيهم من سيعافه، منهم من سيعود مرة أو مرات الى تلك المائدة ليشبع ويلتذ، ومنهم من سيلجأ إلى اقرب مستشفى لتخليص معدته مما التهم بنهم أو بغير نهم.

المستشرقون سيسألون عما حوته المائدة، وسيحفظون اسماء الاطباق وسيعرفون مكونات كل طبق ومقاديره، ولكنهم لن يصلوا الى درجتنا في الاحساس بما ياكلون، ولن يصلوا الى مستوانا في الشعور بنكهة الطعام أو مذاقه الخاص.

نحن نتعامل ونتفاعل مع التراث الاسلامي من داخله، أما هم فمهما بلغ بهم التواضع أو الاندماج سيظلون يتعاملون ويتفاعلون معه من خارجه.

لكل ماسبق لابد أن نفهم الحدود المعقولة لما هو مطلوب منهم.

فليس مطلوباً منهم أن يحبوا تراثنا بالقدر نفسه الذي نمحضه نحن لهذا التراث من الحب، وليس مطلوباً منهم كذلك أن يحسوا به بالمستوى نفسه الذي نحسه نحن.

لهذا فلابد أن ينشأ من حين لآخر سوء فهم، أو سوء هضم!

ولهذا لابد أن يطفو على السطح أحياناً عدم استمزاج، أو حتى بعض الكره، أو بعض الحقد.

إذا وضعنا كل هذه المسلمات في مقدمة أي مشروع يهدف الى تقويم مواقف المستشرقين من التراث الاسلامي نكون قد وفرنا على أنفسنا وقتاً كثيراً، ونكون قد ادخرنا، لما هو اهم جهداً كثيراً ايضاً.

فلاداعي- في نظري- للاستغراق في البحث عن مبررات أو مسوغات ربما بدت في بعض الأحيان رهينة لفكرة طالما ناهضها معظم مفكرينا، وهي فكرة «المؤامرة» وهذا لايعني بالطبع أنه لم يكن هناك مستشرقون انحرفوا عن المقاصد العلمية النزيهة الى غايات يظهر أن من الصعب تبرئتها أو تنقيتها من أوشاب الهوى، أو الاغراض المشبوهة فلعلنا، بالأحرى، نتساق، بمقتضى ماقرأنا أو سمعنا أو شاهدنا، الى التاكيد بأن هناك من المستشرقين من «تعمد» الاساءة الى الاسلام والى تراثه!.. ولكننا، ومهما يكن من أمر، نستطيع أن نقول بأن المستشرقين لم يكونوا كلهم من هذا الفصيل الدنيء. فهناك منهم من اساء وهو لايقصد الى الإساءة في ذاتها، وهناك منهم أيضاً من أحسن الى تراثنا أيما احسان.

إن الذين يسيئون من دون قصد هم أولئك الذين لاترهقهم الشروط العقائدية أو الجذورية، فهم يقصون من تفكيرهم ماهو مقدس، فلايرون لعقيدة المسلم سلطاناً عليهم، ولايقومون الأشياء أو يتخذون مواقفهم منها ضمن ذلك الاطار الذي يعتبر بالنسبة الى المؤمن أساساً في تفكيره، أو فهمه، أو استقرائه للنتائج.

إنهم، إضافة الى ذلك، ينطلقون من بيئات ثقافية، أو مسلمات فكرية، ليست بالضرورة على صلة ببيئة الثقافة العربية أو بمقوماتها الفكرية والوجدانية، ولهذا فهم معفون من حمية الجذور، وبالتالي فهم معفون من فهم للافكار يرقى الى مستوى فهم العرب لها.

من هنا يحدث الخلط، والتداخل في الفهم، ومن ثم الخلوص الى نتائج أو آراء ليست منصفة أو هي بالأصح غير صحيحة.

هناك مستشرقون لم يقعوا ضحية للهوى، ونستطيع ان نقول بانهم نجحوا في اختيار الشروط العقائدية والجذورية، فخدموا لاشك التراث الاسلامي خدمة جليلة، لاسيما في مجال الادب، ربما لطبيعته الرحبة، وربما لأنه الأبعد عن محاذير وحساسيات حقول الثقافة الأخرى.

هذا النوع من المستشرقين لابد أن ننصفهم، فلا نسمح لغضبنا على غيرهم أن يدفعنا الى غمطهم بعض حقوقهم أو ربما حقوقهم كلها.

من هذا المنطلق الهادىء لابد أن ننصف الحركة الاستشراقية في عمومها، فهي قدمت للتراث العربي من الخدمات مالم تقدمه القلاع الكبرى للثقافة العربية في العالم الاسلامي نفسه (وفي الذهن الاستشراق الالماني مثلاً) كما أن الجهود العربية المتأخرة في هذا المجال نفسه مدينة لجهود المستشرقين الأوائل في المنهج والآليات وطرق البحث.

أثار عندي هذه الشجون الأخ الكريم د.مازن مطبقاني عندما تفضل فبعث إلي ببعض ماقام به من ابحاث قيمة في مجال الاستشراق، مثل كتابه «من آفاق الاستشراق الامريكي المعاصر» وكتابه: «المغرب العربي بين الاستعمار والاستشراق»، وقد يكون لي عودة الى اعمال د.مطبقاني، لما في ذلك من فائدة وجدوى، فليت الوقت يسعفنا بشيء من أريحياته في القريب العاجل إن شاء الله.